نيوروتون

نورا عبدالعزيز - مصر

"لو سمحتِ يا دكتورة، فكّة ٢٠٠ جنيه ".
قالها مادًا يدَه بورقة من فئة المائتي جنيه نحوي..
ألم يراني! أم غضّ الطرف عني؟!
كنتُ غارقةً في دمائي، تسيل من رأسي حتى أخمص قدمي:
"هو حضرتك ما بتشوفش، هو البعيد أعمى؟! " حدثتُ نفسي بتلك الكلمات؛
لم يحرّك الرجل ساكنًا ورحل مسرعًا.. يبدو أنّه كان في عجلة من أمره إلى أقدارالله.. وقفتُ وحدي أضرج بدمائي ..
تشوّهاتٌ جسديةٌ مزّقتني أعقبتها تشوهاتٌ روحيةٌ أزهقتني ..
ففي فترةِ الظهيرة دخل الصيدلية رجلٌ مسكين أو هكذا خُيّل لي!
ترتعش أطرافه، يبدو أنّه يعاني من مرض "باركنسون" الذي غالبًا ما يصاب به الناس علي كبر..
"هاتي يا بنتي شريط "نيوروتون" قالها بصوت مرتعش جدًّا ..
ذهبت إلى أرفف الڤيتامينات لأبحث عن هذا ال "نيوروتون "
لم أجده للأسف ..
"مش موجود والله يا حاج، ناقص" تعمّدت أن أرفع صوتي بالكلمات تلك ..
أعلم أن كبارالسن دومًا ما يصابون بالأمراض وتضعف حواسهم الخمس..
تقوى حاجتُهم إلي كل شيءٍ وكأن أجسادَهم تسلم يدها للرحيل ..

"يعني ايه ناقص! اتصرفيلي في شريط يا بنتي، أنا أعصابي ضعيفة ومقدرش أستغني عنه".

"أنا آسفة والله يا حاج يا ريته بإيدينا!".

رمقني الرجل بنظرةِ استعطاف ثم فجأةً قلبها نظرة غضب جليّ..

"ده أنا زبون الصيدلية يا بنتي وباخد كل علاجي من هنا"..

لم يعلم ذاك الرجل أن تكرار الكلمات هو سبب أوحد كافٍ لجعل نوبة الانهيار العصبي تأتيني مهرولةً! تمالكتُ أعصابي قائلةً بابتسامة عريضة: "لو موجود أنت أول واحد هديهولك يا حاج والله"..

"حسبي الله ونعم الوكيل، يا عالم يا مفترية، ده احنا غلابة وملناش حد، منك لله يا شيخة"..

ما كان يدري أن أكثر ما يجن جنوني هو الظلم!

الظلم يحوّلني من حمل وديع إلى وحشٍ كاسر..

عندما كنت صغيرة كان أبي يظلمني بالكلام فأبكي .. وأمّي تضربني فأبكي ..

البكاءُ مريح جدًّا، يغسل القلب من الظلم!

كبُرت .. فازداد العالم ظلمًا .. وازداد الظالمين افتراءً..

ما عاد البكاء يجدي نفعًا في عالم الكبار..

فيشاء الله –سبحانه- أن أصابَ بالانهيار العصبي بعد خيبة أملٍ كبرى، بعد انكسار قلبي الصغير..

آهٍ يا صغيري، كُسِرت قبل أن تلتئم جروحك القديمة!

ذات صيفٍ منذ خمسة أعوام، بعد التحاقي بكلية الطبّ، ذهبت لاستطلع نتيجة عامي الأول ..

وخمّنت ووضعت احتمالين لا ثالث لهما إما إمتياز وإما جيدا جدًّا، بالطبع لن أرتضي بالأقل.. فأنا "صفية محمد حسنين الحصري" الأولى علي الثانوية العامة على مستوى الجمهورية ..

الطابور في الجامعة طويل جدًّا والشمس محرقة جدًّا جدًّا ..

بعد عناء مع تلك المحبطات وصلت ..

أبحث عن اسمي "صاد ، صاد ، صابر، صابرين ، صفية. أهي" قلتُها فرحةً..

ما كنت أحسب أن الفرحة يمكن أن تحَال صدمةً في لحظةٍ واحدةٍ!

رااااسبة في جميع المواد!! هكذا قرأت عيناي!

بلا إرادة مني ظللتُ أصرخ لمدة ثلاثون دقيقة متواصلة!! عيناي تنهمر منهما الدموع كبحر خلق توًّا..

تجمّع الطالبات والطلبة، منهم من احتضنني ومنهم من أحضر مياه باردةً للشرب وكل ساعد بما استطاع .. ما خفّف ذلك من إحساسي بالظلم اللامنتهي..

حملوني إلي مستشفي الطلبة .. شخّص الطبيب حالتي "انهيار عصبي"!

منذ تلك اللحظة وانهالت الخيبات تلو الأخرى مع كل خيبةٍ نوبة انهيار عصبي أشد مما قبلها!

فراق الأحبة، موت عمتي، موت جدّتي، حرقُ جثث أصدقائي في نوبة ظلم فاجرةٍ! الكثير من خيبات الأمل بطعم الظلم ..

الرجل لا يزال يقف في الصيدلية يدعو الله عليّ في ظلمٍ بيّن بجسدٍ مرتعشٍ!

يذكّرني بنفسي في لحظات الانهيار..

بدت عليه علامات التهوّر، وضع يده في جيبه، ثم .. ثم ..

لا أتذكر جيدًا سوىٰ مشرط ويد تمزّق بلا هوادة، حتى أن أرضَ الصيدلية قد غطتها الدماء !

"فكة ٢٠٠ جنيه يا دكتورة لو سمحتي ؟" قالها ذاك الرجل الغريب ...

شعرتُ أن الزمن قد توقف، أو أنّ هذه الكلمات مكررة! لحظة انعدمت فيها الجاذبية تقريبا! وقبل أن أجيبَه رحل أيضًا مسرعًا!

ما ذنبي أنا إن لم تتوافر بعض أصناف الأدوية، لِمَ أتحمل المسؤولية وحدي؟!

غبيّ ذاك الرجل عندما صب جام غضبه عليّ وانهال ضربا باليمين علي جسدي الضعيف..

بشيءٍ ما يشبه مشرط العمليات شوّه وجهي البريء ..

لكن مهلًا! لِمَ يدخل الناس ويخرجون دون أن يلحظوا هولَ ما أنا فيه؟!

كمظلومة لعنتُ الإنسانية التي اندثرت الآن كاندثار حضارة الأندلس ..

استفاقتْ أذناي على صوت يشبه .. "سرينة الشرطة"!

زادني الصوت فرحًا، لابد أنهم قبضوا على المعتدي.. أخيرا سيطبّق القانون في بلاد اللاقوانين .. دخلوا الصيدلية، وجدوني بابتسامة تزيّن محياي ..

"من غير مقاومة يا بِتّ، يلّا معانا، وأنت يا حضرة المأمور غطِّي الجثة واستني هنا؛ دكاترة الطب الشرعي في الطريق، كَلْبِشْها يا عسكري"!

بدأتُ بالصراخ .. "حرام عليكم، فين العدل! أنا اللي اتهدلت، أنا المجني عليها، أنا اللي غرقانة ف دّمي، يا ناس حرام اللي بيحصلي ده والله، حراااااام"!

بصوتٍ مرتفع الحدة والشدة "قولتلك كلبشها يا عسكري"!

وسط جمهرة الأهالي والصراخ والعويل، ساقوني كما تُساق الأنعام إلى عربة الشرطة... وضعوني في "بوكس الشرطة" بدفعة قوية من الضابط بلا أدني سبب.. رمقتُه بنظرة حقدٍ .. "ما تلمسنيش، أنا رايحة بمزاجي واللي المفروض يتحاسب لسه ما قبضتوش عليه ..

"للأسف افتكرت أن ممكن البلد دي حالها يتعدل" .. تحدثتُ بثقةٍ بالغةٍ وأنا أنهار من الداخل ..

أقعدوني وعن يميني عسكري بزيّه الأسود المعتاد وآخر عن يساري أيضًا .. ربما كانت ترمز ألوان ملابسهم إلى مستقبلي!

من مسجدٍ على مقربة من ذاك "بوكس الشرطة".. وبجانب الصيدلية لمحت نعشًا! لمن يا ترى؟!

لم أسمع الميكروفون ينادي على أحد اليوم.. النعش خرج وحوله الناس..

مهلًا .. ما هذا الذي فِي جيبي؟! "مشرط العمليات؟!"

ماذا يفعل في جيبي؟!

مهلًا .. وجهي .. لا آثارَ لتشوهات!

يداي .. جسدي .. ملابسي .. لا آثارَ لدماء!

مهلًا .. لم آخذ جرعة علاجي اليوم! لم آخذ ال "نيوروتون"!

حتمًا سأصاب بانهيار عصبيّ ..هل حدث فعلا ؟!

أنا القاتلة .. ؟!

خرج النعش يحمله الأهالي ..

صار "البوكس" يحملني كقاتلة إلى مصير قاتل ...

بدأ النعش يصغر شيئًا فشيئًا حتي اختفى..